العقيدة الإسلامية

التبرك المشروع والممنوع

(٣-٣)

الشيخ محمد صفوت نور الدين

حول أحاديث التبرك

جاء في البخاري في الحديث الطويل في صلح الحديبية: (ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بعينيه قال: فوالله ما تنخم رسول الله صلى الله عليه وسلم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيماً له. فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك. ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إن رأيت مليكاً قط يعظمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم محمداً، والله إن تنخم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده. وإذا أمرهم ابتدروا أمره وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده وما يحدون إليه النظر تعظيماً له وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها....) [البخاري (٢٥٨١)].

قال ابن حجر في (الفتح): لعل الصحابة فعلوا ذلك بحضرة عروة وبالغوا في ذلك إشارة منهم إلى الرد على ما خشيه من فرارهم وكأنهم قالوا بلسان الحال: من يحب إمامه هذه المحبة ويعظمه هذا التعظيم كيف يظن أنه يفر عنه ويسلمه لعدوه؟! بل هم أشد اغتباطاً به وبدينه وبنصره من القبائل التي تراعي بعضها بعضاً بمجرد الرحم، فيستفاد منه جواز التوسل إلى المقصود بكل طريق سائغ. (انتهى).

ومعنى هذا أن التبرك بمثل هذا مباح وإن كانت المبالغة فيه لشهود عروة بن مسعود الثقفي نائباً عن قريش، وهو وافد الملوك يعجبه أُبَّهة المُلك فواجهه النبي صلى الله عليه وسلم بالذي يعجبه، والذي إذا حكاه لقريش لانوا إلى الصلح وعدلوا عن القتال.

ولقد كان موقف الحديبية حافلاً بمثل ذلك، فإنه عندما وفد إليهم من قبل قريش رجل من بني كنانة وهم قوم يعظمون البيت بعثوا الهدي في وجهه واستقبله الناس بالتلبية.

فلما رأى الرجل ذلك قال: سبحان الله !! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت؟! فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قلدت وأشعرت فما أرى أن يصدوا عن البيت.

هذا وإن مواقف الجهاد وحضور العدو يكون فيها ما لا يكون في سواها من المواقف؛ فهذا أبو دجانة سماك بن خراش رضي الله عنه يسير يوم أحد بسيفه يتبختر أمام العدو، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إنها لمشية يبغضها الله ورسوله إلا في مثل هذا الموطن)[١].

ومثل هذا حديث البخاري ومسلم[٢] عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وهو نازل بالجعرانة بين مكة والمدينة ومعه بلال، فأتى النبي صلى الله عليه وسلم أعرابي فقال: ألا تنجز لي ما وعدتني؟ فقال: له (أبشر). فقال: قد أكثرت عليَّ من أبشر. فأقبل على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال: (رد البشرى، فاقبلا أنتما). قالا: قبلنا. ثم دعا بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه ثم قال: (اشربا منه، وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا) فأخذا القدح ففعلا، فنادت أم سلمة من وراء الستر: أن أفضلا لأمكما، فأفضلا لها منه طائفة، فكأن ذلك كان في محضر كثير من حديثي العهد بالإسلام فأرادا أن يريهم بأمر مباح منزلته عند أتباعه من المسلمين وكيف أنهم يستمعون لأمره ويعظمون قدره.

وهذا وأحاديث التبرك بشعره وبوضوئه وقعت غالبها في مثل هذه المواقف كما حدث في أكبر جموعه شهوداً في حلق شعره في حجة الوداع بمنى وفي وضوئه بالأبطح حيث يجتمع الحجاج وحيث يستعدون للرحيل وفيهم من لم يسبق لهم رؤية النبي صلى الله عليه وسلم.

---

[١] انظر سير أعلام النبلاء (١/٢٤٤- ٢٤٥).

[٢] البخاري (٤٠٧٣)، ومسلم (٢٤٩٧).

هذا فإن كانت الآثار النبوية التي يتبرك بها قد انقطعت فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرشد إلى الأمر الذي لا ينقطع، فلقد أخرج البيهقي في [الشعب ١٥٣٣] عن عبد الرحمن بن أبي قراد أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ يوماً فجعل أصحابه يتمسحون بوضوئه، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم: (ما يحملكم على هذا؟) قالوا: حب الله ورسوله. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (من سره أن يحب الله ورسوله أو يحبه الله ورسوله فليصدق حديثه إذا حدث، وليؤد أمانته إذا اؤتمن وليحسن جوار من جاور)[1].

من أحاديث التبرك بالنبي صلى الله عليه وسلم

١- عن عائشة رضي الله عنها: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يقرأ على نفسه بالمعوذات وينفث. فلما اشتد وجعه كنت أقرأ عليه وأمسح عنه بيده رجاء بركتها). أخرجه البخاري ومسلم.

٢- أخرج مسلم في كتاب الفضائل، باب قرب النبي عليه الصلاة والسلام من الناس وتبركهم به، عن أنس رضي الله عنه قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى الغداة جاء خدم المدينة بآنيتهم فيها الماء فما يؤتى بإناء إلا غمس يده فيها، فربما جاءوه في الغداة الباردة فيغمس يده فيها).

٣- أخرج مسلم في (صحيحه) كتاب (الحج) باب (السنة أن يرمي ثم ينحر)، عن أنس: (أن النبي صلى الله عليه وسلم قال للحلاق: خذ وأشار إلى جانبه الأيمن ثم جعل يعطيه الناس فوزع الشعرة والشعرتين بين الناس ثم قال بالأيسر فصنع ثم قال: (ههنا أبو طلحة؟) فدفعه إلى أبي طلحة).

٤- روى مسلم في (صحيحه) عن أنس، عن أم سليم: (أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يأتيها فيقيل عندها فتبسط له نطعاً فيقيل عليه وكان كثير العرق فكانت تجمع عرقه فتجعله في الطيب والقوارير فقال النبي صلى الله عليه

---

[1] قال الألباني في (مشكاة المصابيح) رقم (٤٩٩٠): حديث حسن، وخرجته في (الصحيحة) رقم (٢٩٩٨).

وسلم: (يا أم سليم ما هذا؟) قالت: عرقك أدوف – أي أخلط – به طيبي – وفي رواية نرجو بركته لصبياننا. قال: (أصبت).

٥- أخرج البخاري في (صحيحه) عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن امرأة أهدت بردة للنبي صلى الله عليه وسلم فأخذها فلبسها محتاجاً إليها فقال له رجل: يا رسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها فقال: (نعم) فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم لامه أصحابه فقالوا: ما أحسنت حين رأيت النبي صلى الله عليه وسلم أخذها محتاجاً إليها ثم سألته إياها وقد عرفت أنه لا يسأل شيئاً فيمنعه. فقال: رجوت بركتها حين لبسها النبي صلى الله عليه وسلم لعلي أكفن فيها.

٦- حديث أم عطية عند الشيخين في تكفين ابنة النبي صلى الله عليه وسلم لما أعطاهم إزاره وقال: (أشعرنها إياها).

٧- حديث أبي أيوب الأنصاري عند مسلم في تتبعه موضع أصابع النبي صلى الله عليه وسلم في الإناء بعد أكله منه.

٨- حديث سعد بن سعد عند الشيخين في قول ابن عباس لما استأذنه أن يعطي أشياخاً عن يساره الإناء بعد ما شرب منه فقال ابن عباس: لا أوثر بنصيبي منك أحداً.

٩- أخرج البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقدح فيه ماء فغسل يديه ووجهه فيه ومج فيه ثم قال: (اشربا منه وأفرغا على وجوهكما ونحوركما وأبشرا) فأخذا القدح ففعلا ما أمرهما به رسول الله صلى الله عليه وسلم فنادتهما أم سلمة من وراء الستر: أفضلا لأمكما مما في إنائكما، فأفضلا لها منه طائفة، قال ابن حجر: والغرض منه (إيجاد البركة بريقه المبارك).

١٠- أخرج مسلم في (صحيحه) من حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت عن جبة عندها: هذه كانت عند عائشة حتى قبضت فلما قبضت قبضتها وكان النبي صلى الله عليه وسلم يلبسها فنحن نغسلها للمرضى يستشفي بها.

بركة الصالحين

يقول ابن تيمية في (الفتاوى) ما ملخصه:

أما قول القائل (نحن في بركة فلان) فهذا الكلام صحيح باعتبار، باطل باعتبار، أما الصحيح فأن يراد أنه هدانا وعلمنا وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر. فحصل لنا الخير باتباعه وطاعته وأيضاً ببركة دعائه وصلاحه دفع الله الشر وحصل الرزق والنصر، ففي الحديث: (وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم) بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم، بل قد يدفع الله العذاب عن الكفار والفجار لئلا يصيب من بينهم من المؤمنين لقوله تعالى: {لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا} [الفتح: ٢٥]، وكذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: (لولا ما في البيوت من النساء والذراري لأمرت بالصلاة فتقام ثم أنطلق معي برجال معهم حزم من حطب إلى قوم لا يشهدون الصلاة معنا فأحرق عليهم بيوتهم)، وكذلك ترك رجم الحامل حتى تضع جنينها. فبركات أولياء الله الصالحين باعتبار نفعهم للخلق بدعائهم إلى طاعة الله وبدعائهم للخلق وبما ينزل الله من الرحمة ويدفع من العذاب بسببهم حق موجود.

وأما المعنى الباطل فمثل أن يريد الإشراك بالخلق: مثل أن يكون رجل مقبور بمكان فيظن أن الله يتولاهم لأجله وإن لم يقوموا بطاعة الله ورسوله، فهذا جهل. فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم مدفوناً بالمدينة عام الحرة وقد أصاب أهل المدينة من القتل والنهب والخوف ما لا يعلمه إلا الله وكان ذلك لأنهم بعد الخلفاء الراشدين أحدثوا أعمالاً أوجبت ذلك.

وكذلك الخليل صلى الله عليه وسلم مدفون بالشام وقد استولى النصارى[١] على تلك البلاد قريباً من مائة سنة، وكان أهلها في شر، وكذلك إذا ظن أن بركة الشخص تعود على من أشرك به وخرج عن طاعة الله ورسوله مثل أن يظن أن بركة

---

[١] بل إن اليهود يدنسونها ويشيعون فيها الكفر والفواحش والمنكرات، ومعهم معظم العالم على كل من قاوم فحشهم وأنكر ذلك عليهم.

السجود لغيره وتقبيل الأرض عنده ونحو ذلك يحصل له السعادة وإن لم يعمل بطاعة الله ورسوله.

وكذلك إذا اعتقد أن ذلك الشخص يشفع له ويدخله الجنة بمجرد محبته وانتسابه إليه.

فهذه الأمور ونحوها مما فيه مخالفة الكتاب والسنة فهو من أحوال المشركين وأهل البدع باطل لا يجوز اعتقاده ولا اعتماده، والله سبحانه وتعالى أعلم. انتهى.

وقد بيَّن جانباً من ذلك الشاطبي في (الاعتصام) في أوائل الجزء الثاني منه فليراجع لأهميته ونفاسته.

هذا والأدلة التي وردت في التبرك بآثار النبي صلى الله عليه وسلم لا يقاس عليها غيره فلا يقال بجواز التبرك بالصالحين وآثارهم.

ويقول ابن باز في مجلة (صوت الأمة الهندية) عدد شعبان ١٤١٦هـ (ص ٢٢): والواجب على المسلمين الاتباع والتقيد بالشرع والحذر من البدع القولية والعملية ولهذا لم يتبرك الصحابة رضي الله عنهم بشعر الصديق رضي الله عنه أو عرقه أو وضوئه ولا بشعر عمر أو عثمان أو علي أو عرقهم أو وضوئهم ولا بعرق غيرهم من الصحابة؛ لعلمهم بأن هذا أمر خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ولا يقاس عليه غيره في ذلك.

وقد قال الله عزوجل: {وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [التوبة: ١٠٠].

الغلو في الصالحين

أخرج البخاري في (صحيحه)[١] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: صارت الأوثان التي كانت تعبد في قوم نوح في العرب بعد، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني عطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي الكلاع،

[١] البخاري (٤٦٣٦).

أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ العلم عبدت.

وأخرج أيضا [١] عن عائشة رضي الله عنها: (أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير فذكرتا للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: (إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة).

وكان ذلك في مرض النبي صلى الله عليه وسلم فانظر – رعاك الله وأرشدك – كيف كان السؤال عن كنيسة والأحاديث دالة على أن ذكرها كان ذكر إعجاب منها وأن اسمها مارية حيث في رواية (فذكرن من حسنها وتصاوير فيها فرفع النبي صلى الله عليه وسلم رأسه فقال...وذكر الحديث).

وتدبر لتعلم أن ذلك الحكم لا يقبل النسخ فهو محكم من أهم محكمات الشريعة، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقل بنوا على قبره كنيسة إنما قال: (مسجداً) ليعرف الناس أن هذه الأمة مشمولة بالنهي والتحريم.

ويدل على ذلك أيضاً حديث مسلم الذي أخرجه عن أبي هريرة وابن عباس وعائشة، ورواية عائشة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه الذي لم يقم منه: (لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد) فلولا ذلك أبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً[٢].

قال ابن حجر في (الفتح): فوجه التعليل أن الوعيد على ذلك يتناول من اتخذ قبورهم مساجد تعظيماً ومغالاة كما صنع أهل الجاهلية، وجرهم ذلك إلى عبادتهم. وتدبر كيف أن ذلك كان تعليقاً على كنيسة عظيمة فلا يصح أن نفهم أن الصلاة

---

[١] البخاري (٣٦٦٠).

[٢] مسلم (٥٢٩).

على القبر بمعنى فوقه إنما بناء المسجد من أجل القبر أو الدفن في المسجد تعظيماً لذلك الصالح[١].

هذا وقد نهى رب العزة عن الغلو في الأنبياء على شرف منزلتهم فقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ} [النساء: ١٧١]، ولقد جاء في الحديث[٢] عن ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله).

لكن الشيطان وسوس للناس فشابهوا النصارى في غلوهم وشركهم في بناء المساجد على القبور، وصلوا فيها، وطافوا بتلك القبور واستغاثوا بها، وزعموا أنها تكشف الكربات وتقضي الحاجات، وظنوا أن الصلاة في هذه الأضرحة أفضل من الصلاة في المساجد.

وفي حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إياكم والغلو في الدين فإنما أهلك ما كان قبلكم الغلو في الدين)[٣].

فإذا كان النهي قد ورد في الغلو في الأنبياء وفي خاتمهم صلى الله عليه وسلم وهو صاحب المنزلة العالية العظيمة عند الله فكيف بغيره من الصالحين والأولياء فهي باب الشرك وسببه ولذا فإن الشرع جاء بحماية التوحيد والبعد عن الشرك، ولما كان ذلك الغلو في الصالحين تضافرت نصوص الشرع قرآناً وسنة وكان عليها أقوال الأئمة في ذلك، لأن التوحيد والإخلاص والنهي عن الشرك أهم مقاصد الشريعة والله أعلم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.



---

[١] تنبيه: النبي صلى الله عليه وسلم لم يدفن في مسجده ولا بني المسجد على قبره، راجع لذلك ما كتبه الشيخ محمد علي عبد الرحيم رحمه الله بذلك الشأن.

قلت: وقد طبعت مقالته على لوحة كبيرة توضح كيف أدخل القبر في المسجد فراجعها فإنها نفيسة.

[٢] أخرجه البخاري (٣٢٦١).

[٣] أخرجه النسائي (٥/٢٦٨)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٢٨٣).